أدب القوة وأدب الضعف

للاستاذ أحمد أمين

يروون أن جماعة من آل الزبير كانوا يجتمعون إلى مغنية فيسمعون ويطربون . حتى إذا استخف الطرب أحدهم (وهو عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير) قال فيها :

أحلف بالله يميناً ومن ... يحلف بالله فقد أخلصا
لو أنها تدعو إلى بيعة ... بايعتها ثم شققت العصا

فبلغت هذه الأبيات أبا جعفر المنصور فدعاه اليه وعنفه على قوله ، وعيره بضعف آل الزبير من هذه الناحية إلى أن قال له « حتى صرت أنت آخر الحمقى تبايع المغنيات ، فدونكم يا آل الزبير وهذا المرتع الوخيم ! »

وسخر المنصور من هذا الضرب من القول ، وهذا النوع من الحياة ، وقال إنما يعجبني أن يحدى لى بهذه الأبيات :

إن قناتى لنبع لا يؤيسها ... غمز الثقاف ولا دهن ولا نار
متى أجر خائفاً تأمن مسارحه ... وإن أخف آمناً تقلق به الدار

هذه القصة تمثل نوعين من الأدب : فنوع يصح أن تسميه أدبا رقيقاً ، وإن كنت أشد صراحة فسمه أدبا ضعيفاً أو أدبا « مائعاً » كما يصح أن تسمى النوع الثانى أدبا قويا أو أدبا رصيناً .

ولست أعنى بالضعف أو القوة ضعف الأدب أو قوته من الناحية الفنية ، وإنما أعنى ضعفه وقوته من الناحية الخلقية والاجتماعية ، فقد يكون هذا النوع الذى أسميه ضعيفاً أو مائعاً فى منتهى الرقى من الناحية الفنية ، كما قد يكون الأدب القوى ليس قويا بالمقياس الفنى .

وهذه القصة تمثل لنا أيضاً أن الأدب المائع والقوى أثر من آثار الحوادث والظروف ، فقد فشل آل الزبير سياسياً ولم تتحقق مطامعهم . فاستولى عليهم اليأس وانصرفوا إلى اللهو وانسوا بالسماع وما اليه واحتقروا الخلافة حتى ليهمون أن يبايعوا جارية مغنية ، ويحدث عبد الله بن مصعب هذا عن نفسه فيقول : إذا غنتنى هذه الجارية .

حسبت أنى مالك جالس ... حفت به الأملاك والموكب
فلا أبالى واله الورى ... أشرق العالم أم غربوا

اما المنصور فنجح وأسس ملكا ضخما ، ووصل إلى هذا النجاح بقوته وحزمه ، لذلك كان أحب شعر اليه . شعر القوة والعظمة والحمية .

* * *

يخيل إلى أنا إذا ألقينا نظرة عامة على الأدب العربى من هذه الناحية رأينا الأدب الجاهلي قويا — كجلمود صخر حطه السيل من عل — حماسة قوية ، وفخر قوى ، بل وغزل قوى ، والأدب الاسلامى إلى آخر العهد الأموى ، أدب قوى ، فيه عزة الفاتح ، واعجاب الناجح ، ونشوة المنتصر ، وإن كان فيه نغمات ضعف فنغمات الحزب الذى غلب على أمره ، أو المحب الذى يئس فى حبه ، أما من عداهؤلاء ففخر واعجاب ، وهجاء فى أعلى درجات القوة

فاذا نحن انتقلنا إلى العصر العباسى رأينا العزة العربية تأخذ فى الضعف ، ورأينا الانهماك فى اللهو يبعث أدباً جميلا فى فنه ، ضعيفاً فى روحه ، فيقول رئيس المجددين فى عصره بشار بن برد :

قد عشت بين الريحان والراح والـ ... مزهر فى ظل مجلس حسن
وقد ملأت البلاد ما بين قنغفو ... ر إلى القيروان فالیمن
شعرا تصلى له العواتق والـ ... ثيب صلاة الغواة للوثن

وتوالت النكبات على الشرق من ظلم وجور وسوء فى كل نظم الحياة الاجتماعية فكان الأدب العربى ظلا لهذه الحياة — كان أدباً ضعيفاً ، إن أنت حصرته وجدته بين باك على مصائب الدهر كأبى العلاء ، ومادح للولاة والأمراء والأغنياء . ومستهتر يصف استهتاره وصفاً أنيقاً بديعاً يرضى الفن ولا يرضى الروح ، وما اخترع من الفنون كان من هذا الضرب ، مقامات للبديع والحريرى بنيت على التسول والاستجداء ، وإفراط فى المجون ، أو إفراط فى التصوف ، وكلاهما فرار من حياة الجد — والنثر حمل

كل انواع الزينة من سجع وبديع ، فكان كالفتاة تسرف فى التجمل الصناعى لما شعرت بنقصان جمالها الطبيعى

ولم يظفر العالم العربى من العهد العباسى الا بأفراد قلائل منحوا من القوة فى أدبهم ما كان موضع الاعجاب كالمتنبى والبارودى ، وكلاهما كانت قوته صدى لحياته ، فالمتنبى فارس شجاع كان فى أكثر شعره يسجل وقائع سيف الدولة مع الروم ، ويدون مظاهر القوة والفروسية ، والبارودى كذلك رب سيف وقلم ، فكان قلمه مسجلا لآثار سيفه ، وقليل كأمثال هؤلاء . وإلا فخبرنى عن شعر البطولة والفروسية والحياة والقوة بعد ، وأين الشعر الغنائى الذى صدر عن شعور بالعزة القومية فى الادب العربى ؟ — اليس عجيباً أن نرى شعر البهاء زهير وقد كان فى أسمى منصب من مناصب الدولة وكان مشرفاً على الحروب الصليبية ومساهماً فى تدبير شئونها لا يذكر لنا فى شعره شيئاً من أغانى الفروسية ، ثم ينصرف بكله إلى الغزل المائع . على حين أن الصليبيين خلفوا لقومهم أغانى وأشعاراً صليبية قوية ، ولم يخلف لنا الأدب العربى فى هذا الباب إلا ما كان تافهاً ضعيفاً — لعل السبب فى هذا أن المسلمين كان موقفهم فى هذا موقف دفاع لا هجوم « وماغزى قوم فى عقر دارهم إلا ذلوا »

* * *

وبعد ، فكل عاطفة من عواطف الانسان — على كثرتها وتعددها — موضوع للأدب ، وخير الأدب ما انبعث عن عاطفة صحيحة لا مريضة ، فالشعر المتناهى فى وصف ما يلاقى المحب من عذاب والذى يذوب رقة وحناناً ليس — فى نظرى — مؤسساً على عاطفة صحيحة كالذى فى شعر العباس بن الأحنف وأمثاله ، وهذا الشعر وإن أرضى الجمهور ولذ لهم هو فى كثير من الأحيان أجوف ، وهو فى كثير من الأحيان نتاج عاطفة مريضة . وليس من الحق أن يبيع الانسان عواطفه بهذه السهولة — والشاعر المجيد — هو الذى يثير العواطف بقدر ، ويبنيها على أساس عميق ، اما إن هو تغالى فى ذلك وأثار عواطف حادة لأسباب واهية كان أدبه أدبا خفيفاً ضعيف القيمة مهما استلذه الناس وأعجبوا به .

هناك عواطف حنان ، وعواطف إجلال ، وعواطف جمال وعواطف قوة ، وهناك ما يثير الحزن ، وما يثير السرور ، وما يثير الشهوة ، وما يثير البطولة ، وما يدفع إلى المجد ، وما يدفع إلى اللهو ، وكلها صالحة للأدب ، وكلها فى نظر الأدب سواء وان اختلفت قيمتها فى نظر الأخلاق ، ونظر دعاة الاصلاح ، فالأخلاقى يرى أن الأدب الذى يثير لذة حسية أقل رقياً من أدب يثير شعوراً أخلاقياً كالاعجاب بالبطولة ، واحتمال الآلام فى سبيل أعمال جليلة — وأرقى الأدب فى نظرنا ما أحيا الضمير وزاد حياة الناس قوة .

وأغرب مافى الأمر أن أدباءنا الذين انتفعوا بالأدب الغربى وعملوا على نقله إلى الأدب العربى أفرطوا فى نقل هذا النوع من الأدب المائع وفرطوا فى نقل الأدب القوى ، وسبب ذلك أنهم جاروا ميول الجمهور وسايروا رغباته فكانوا تجاراً أكثر منهم قادة ، والجمهور إنما استلذ هذا النوع لأنه من قديم ألف البكاء ، وكانت حالته الاجتماعية تدعو اليه ، ولأنه ترك جده على كاهل غيره ففرغ للهو .

وكان هذا النوع من الأدب أضر بالشرق من ضرره بالغربى ، لأن الغربى عنده بجانب هذا الادب الضعيف أدب آخر قوى ، فاذا بعث الأول حناناً ورقة ، بعث الآخر قوة وجلداً ، فتعادلت حياته وتغذت نواحى عواطفه . اما الشرق فليس له تراث حاضر من أدب قوى يسند ضعفه ويحيى نفسه — وسبب آخر وهو أن الشرق — على العموم — ذو عاطفة أجد وهو لها أقل ضبطاً ، فاذا نحن غذيناه دائماً بهذا الأدب الحاد زادت عواطفه ميوعة — مع أنه أحوج ما يكون إلى ما يقوى عاطفته ويضبط جموحها .

* * *

الحق أن الأدب عود ذو أوتار ويجب أن تكون أوتاره على نظام ما عند الانسان من عواطف جدية وهزلية ، ورقيقة وقوية ، وضاحكة وباكية ، ورخيصة وغالية — والعود الذى يوقع عليه الأديب الشرقى ناقص الأوتار ، تنقصه الأوتار القوية والأوتار التى تبعث الحياة ، والأوتار التى تبعث الضحك ليتلوه